

# هجرة الأعيان

## من الريف إلى المدن

لم يعد للأسر المصرية أن تفخر بعزتها في الريف ، فقد كانت لها العزة أيام كانت عصيات تؤلفها القرابات والأنساب ، وتعلو كلمتها مهابة الإقامة والحوار ، ويضمن احترامها علم الجميع أنها موجودة على مقربة منهم ، ويصرون منازلها شعور الاتباع بأن رجالها حاضرون لا غائبون .

على أن هذه العزة المفقودة هي الجانب الخاص من جوانب الخمران الذي أصابت به بلاد الريف المصري هجرة الأعيان وعميدى الأسر الكبيرة إلى المدن فمذا اتخذوا المدن دور إقامة واستقرار ، ومنذ جعلوا مواطنهم الأصلية مزارات يذهبون إليها ذهاب الغرباء من ذوى الحاجات ، منذ أصبحت علاقتهم بالريف هذه العلاقة المقطوعة أصابهم ما أصابه من تلف ووار ، وهددهم ما هدده من نحراب وإفلاس .

وإنك إذا تجربت الحقيقة فيما تدل عليه مشاهد الحالة في الريف لتعلم أن أول خسارة أصابته هي ضياع الرعاية الأهلية وفقد المثال المحتذى وانقطاع الصلة الروحية بين جمهور العامة من أهله وأولئك الذين كانت الوجاهة الذاتية تنظم في القرى والبلدان منازل الرؤساء المهيبين ، وقد نشأ عن ذلك أن بجمعت القرية في وحدتها الاجتماعية فأصبحت لا تستطيع أن تدفع عن نفسها عوادى الزمن لأن مركز الدائرة من هذه الوحدة - وهم الأعيان والسادة - أصبح منذ تحول عن مكانه غير موجود ، ثم لأن ذوى القرى من عامة أهل الريف وسواهم من اتباع العزة على اختلاف مراتبهم وأشياخ الولاء والمحبة على تفاوت درجاتهم لم يعودوا يجدون في نفوسهم - وأولياؤهم هؤلاء بعيدون عنهم - ذلك الاعتزاز الذي كانوا يجدونه وهم حاضرون بينهم .

لم يعرف اهل الريف الكسل والخمول قبل أن يعرفوهما الآن ، ولم يكن فساد السلوك واختلاله شائعا فيهم بقدر شيوعه اليوم ، ولم يكونوا من قبل يعرفون هذه الجرأة الظاهرة على كرامة الأسر العريقة وأقدار الرجال المحترمين كما عرفوها الآن وكما صارت عادة لا يتحزرون منها بأى اعتبار من الاعترافات المرعية ، واليوم أصبحت هذه الأمراض الاجتماعية فاشية في الريف كله ، فالحقول مهملة حتى يتسبع أصحابها أو الغاملون فيها من قتل الوقت في مجالس التبطل والفراغ على أبواب الدكاكين أو في التسلل مع الزقاق بين أرجاء القرية من هنا إلى هناك ، ومتفاقات الصحة والرزق مما يشرب أو يبيع أو يدخن أو يشم شائعة بينهم شيوع العادة السهلة فلا ينصرفون عنها إلا ليبحثوا عما يحصلون به عايبا حلالا كان أو حراما ، وكل رجل تحفظ له عرافة الأهل أو كرامة العلم أو شرف الاجتهاد في العمل النافع حق الاحترام ومعرفة المكانة لا يأمن عاديتهم على هذا الحق بالأمانة المبسوطة أو الأيدي الممدودة أو النفوس الجالحة ، وليس لذلك من سبب إلا أن البلاد خلت من كبرائها فنابت أشخاصهم من الأبصار وأمتعت أخبارهم عن الأذان وانقطعت من بينهم تلك المهابة التي كان ينشرها في كل مكان شعور الجميع أنهم موجودون لا غائبون .

وقد صارت المفسدة بذلك عامة فلا يختص بها الفلاح الصغير الذي أقعدته رقة حاله عن مفارقة قريته دون المالك الكبير الذي أغرته ظواهر القدرة بالخروج الى المدينة وترك القرية التي هي تبع حياته تنعاه وتنعى مصاحته الضائعة بين أرجائها .  
ولسنا نبلغ الغاية إذا أردنا أن نحصى آثار هذه المفسدة أو نستقصى وجوه الضرر الذي أدت إليه ولكنا على كل حال نستشهد لتوضيح المسألة بما يأتي :

١ - أصبح الفلاح الصغير لا يخشى اللوم ولا يهاب المسؤولية لأن المالك الذي كان يخشى لومه والوجيه الذي كان يتقى المسؤولية أمامه وعميد الأسرة الذي كان ينجله أن يعرف أنه سيحسب السبعة رديء العمل ، هؤلاء لم يعد يحسب لهم حسابا بعد أن رحلوا عنه وعن قريته فاستوطنوا المدينة .

٢ - ضعفت همته في طلب العيش وقررت عنايته باستغبات الأرض ، وقل نشاطه في خدمة الزرع ، وذهب حرصه على وفرة المحصول وجودته لأنه حرم من القدرة العملية التي تثيره هذه للمعانى الراجحة منذ أصبح لا يرى أحدا من الأعيان أصحاب الأرض والزرع يخرج في بكور النهار ليعهد مزرعته الواسعة بالرعاية والاهتمام وليباشر بنفسه ما يجري فيها من ضروب العمل وطرقه وأساليبه فلم يعد هذا الفلاح الصغير ينهض مبكرا ويقبل على شأنه جادا تشيئا خشية أن يعاب بالخمول والإهمال وقلة المعرفة إذا جاء محصوله المتواضع أقل جودة من المحصول الوفير في هذه المزرعة الواسعة .

٣ - زالت من الريف مهابة كبرائه لأنهم يبدون عنه فزالت معها خشية الإقدام على الشر لأن أولئك المغاصرين من فتيانه أمتوا بارتحال الكبراء عن بلادهم حين الرقيب وصوله المؤدب .

٤ - امتدت يد العبث الى مصالح الأعيان الفاشين فأصبحت عرضة للتبدد والضياع وصارت ضحية الإهمال والتفريط ، وفي هذا خسارة لا يعرفها أحد أكثر مما يعرفها أصحاب هذه المصالح .

٥ - حينما كان الأعيان مقيمين في بلادهم كانوا يملكون ضمان السلامة من علل المدينة العصرية وأوبائها فلم يكونوا على مقربة من تيارها الجارف ، ولكنهم منذ تحولت إقامتهم الى المدن جعلوا أنفسهم وأهلهم عرضة لهذا التيار، فأصبحوا هم وأهلهم لا يستطيعون النجاة من هذا التيار كما لا يستطيعون عدم الوقوف في طريقه ، وبذلك انتقلت اليهم العدوى في الأخلاق والعادات ، وحرروا ووفرة الرزق من الحلال الطيب ، ولزمهم من تكاليف المدينة العصرية ومطالبها ما لا سبيل الى الخلاص منه ، فهم يتكفون الكثير من أجور المساكن النخمة وأثاثها وما تحتاج اليه من أثاث يليق بالمسوع من وجاهتهم والمذكور من غناهم ، وقد كانوا في بلادهم لا يتكفون من ذلك شيئا ، وهم لا ينقلون ولا ينقل أبناؤهم ونسأؤهم من مكان الى آخر إلا في سيارة نخمة مملوكة أو مستأجرة ، وهم لا يجدون أسباب القدرة على مدافعة العادات العصرية الشائعة كسهر الأندية والملاهي وما يستتبعه من شر لا خير معه ، فقد احتادوه واءتاده أبناؤهم وأهلهم ، وكرهوا أن يظهرأ متصرفين في ميدانه تغفلوا أنفسهم وأبناءهم وأهلهم بأصدقاء المرح والأيالي الساهرة ، وكل هذه الأساليب من مظاهر الحياة الصاخبة في المدينة بلايع تنفي فيها البحار ، فلو أن ثروة أحدهم كانت بحرا لما بقيت منها قطرة وهي تتحدر الى هذه البلايع .

على أن هناك سرا أعظم من هذا السر لا ينكرون أن أقامتهم في المدينة هي التي أصابتهم به ونرى من اخلاص النصيحة أن نشير اليه بما يكفي لفهمه ، وسنفرض في هذه الإشارة أن لفلان من كبار الأعيان وأهل النسب الشريف والأصل العريق بضع فتيات أنشأتن قصور القاهرة البديعة في أرقى مرتع من مراتع التمدين العصري ، فهل يعلم فلان هذا أن أحدا من نظرائه في الريف خطب إحداهن لنفسه أو لابنه ؟ كلا ، فإن حدث شيء من ذلك فهو التزر الذي لا يتاس عليه ، ثم هل يعلم أن أحدا من شبان البيوت الكريمة الأصل في القاهرة فعل ذلك ؟ كلا ، فإن حدث مرة واحدة فهو الشذوذ الذي لا يطرده معه الحكم .

ولكن فلان هذا ، هل يعلم سبب التعنس الذي أصاب فتياته أو لا يعلمه ؟ مهما يكن فالسبب واضح ، فأهله لا يخطبون للزواج من تتبرج وهي فتاة ، ومن تسهر الليل وحدها أو مع الرفيقات المائلات أو مع الخادم الكبير أو مع سائق السيارة أو مع الأئخ الصغير في الأندية والمسارح ودور اللهو المباح وغير المباح ، أما شبان المدن فيقولون : ما حاجتنا بالفاكهة وهي على أطراف الشجر وبين نخزات الشوك ووراء أسوار الحديقة ما دامت متوفرة في سوق الخضر .

وإنا نرجو أن تتيقظ ضمائر الأعيان بهذه الإشارة اليسيرة ، كما نرجو أن يضعوا كل شأنهم في الميزان ، فهناك الحقيقة التي لا تغيب عنهم ، وهي أنهم يهملون بالإقامة في المدن مصالحهم في الريف فنضيع ، وتكلفتهم حياة المدن أضعاف ما تكلفتهم حياة الريف حين لا يسعفهم نضوب مواردهم بما تتطلبه هذه الحياة فيمدون أيديهم إلى الدين ، ويعجزهم نضوب الموارد مع النفقات المضاعفة عن الوفاء بأقساط الدين فتصبح أملاكهم عرضة للضياع ، وتصبح الدولة حائرة بهم كلما تعلقوا من التسوية العقارية بما يتعلق به الغريق .

إن جلالة الملك المعظم لا يزال يشرف الأعيان في المناسبات الطيبة بإنعام الرتب والنياشين ، وهو إنعام لم يؤهلهم له إلا وصف واحد معين هو وصف أنهم أعيان البلاد ، وهذا الإنعام الكريم يحمل في طيه دليل الرضا والتقدير ، ولكن هل يفهم هؤلاء الأعيان أنهم يحققون في أنفسهم هذه الصفة التي لم يزل مديرو الأقاليم يعملونها مسوغا لتشريفهم بالرتب والنياشين التي يتمسكون الإنعام بها عليهم وكيف لمن تصرفه الإقامة الدائمة في المدن عن مصالحه في الريف ومصالح بلده ومواطنيه أن يعد من الأعيان في بلده الأصلي أو في إقليمه ؟

فمن حسن التأدب في شكر النعمة أن يمدوا إلى بلادهم ليحققوا في أنفسهم وصف أنهم أعيانها وليتعهدوها من وسائل الإصلاح والخير بما يصبحون به جديرين بما نالوا وما يطمعون أن ينالوه .